



العقدُ الفريدُ

جَوَاهِرُ مُخْتَارَةٍ مِنَ الآدَابِ وَجَوَامِعِ الْبَيَانِ

«العقدُ الفريدُ» لابن عبد ربّه يُعدُّ من أهمِّ الكُتُبِ التي أثرتِ المكتبةُ العربيّةُ، نظرًا إلى كونه أحدَ أهمِّ أمّهاتِ كُتُبِ الأدبِ العربيّ، ومؤلّفهُ هو أبو عمَرَ أحمدُ ابنُ مُحَمَّدِ بنِ عبدِ ربّه بنِ حبيبٍ، المولودُ في قرطبة.

والكتابُ موسوعةٌ أدبيّةٌ، تجمّع بينَ المُختاراتِ الشعريّةِ والنثريّةِ، ولمحاتٍ من التاريخِ والأخبارِ، معَ الأخذِ بنظراتٍ في البلاغةِ والنقدِ معَ شيءٍ من العروضِ والموسيقى، وإشاراتٍ للأخلاقِ والعاداتِ. كما يشتملُ الكتابُ على جُملةٍ من الأخبارِ والأمثالِ والحكمِ والمواعظِ والأشعارِ وغيرِها. وقد سُمِّيَ «العقدُ» لأنَّ ابنَ عبدِ ربّه قسّمهُ إلى كُتُبٍ، حملَ كلُّ منها اسمَ حجرٍ كريمٍ، كالزَبَرَجَدَةِ وَالسَّمَرِجَانَةِ وَالْيَاقُوتَةِ وَالجَمانَةِ وَاللؤلؤةِ، وغيرِ ذلكِ ممَّا يُنظَمُ في عُقُودِ الحِسانِ الحَقِيقِيَّةِ.

قيلَ إنَّ الكتابَ في الأصلِ أسماه ابنُ عبدِ ربّه «العقدُ» فقط خاليًا من كلمة «الفريد»، وإمّا أُضيفتْ فيما بعدُ، وقيلَ إنَّ أولَ مَنْ أضافَ هذه الكلمةَ هو «الأبشيهي» صاحبُ «المُسْتَطَرَفِ»، كما يرى كثيرٌ من المؤرّخين أنَّ ابنَ عبدِ ربّه صائبٌ في حديثه عن فرادة هذا الكتابِ الذي كانَ فريدًا في نفاسته، جامعًا شطري المنطقَةِ العربيّةِ في تنوعه، مُتعمّقًا حينَ عوّصه في الماضي الثقافيِّ والنهْلِ منه، ووصولًا إلى الحاضرِ الذي عايشهُ ابنُ عبدِ ربّه في قرطبة التي كانت في ذلكَ الحينِ قبلةَ الثقافةِ العربيّةِ الإسلاميّةِ، والنافذةَ المفتوحةَ على علومِ الماضيِ وآدابه، وعلى العالمِ الشماليِّ الذي كانَ قد بدأ يستيقظُ لِنوّه.



يُقولُ ابنُ عبدِ ربّه عن هذا الكتابِ: «ألّفْتُ هذا الكتابَ وتخيّرتُ جواهرَهُ من مُتخيّرِ جواهرِ الأدبِ ومَحْصُولِ جوامِعِ البَيانِ، فكانَ جَوهرَ الجَوهرِ ولُبَّابَ اللُّبابِ، وإنّما لي فيه تَأليفُ الأَخْبَارِ وَفَضْلُ الاختِيارِ وَحُسْنُ الاختِصارِ وَفَرَشُ في صَدْرِ كلِّ كِتَابٍ، وَمَا سِوَاهُ فَمَأخُودٌ من أفواهِ العُلَماءِ وَمَأثورٌ عن الحُكَماءِ وَالأدبَاءِ». بهِذه الكَلِماتِ قَدَّمَ ابنُ عبدِ ربّه لِهَذَا الكِتَابِ الَّذِي يُعَدُّ واحِدًا من أمتعِ كُتُبِ التُّراثِ الأدبيِّ وَالأخلاقِيِّ وَالفِكرِيِّ العربيِّ، كما يُعَدُّ المُعادِلَ الأندلسيَّ لِعَدَدٍ من أمّهاتِ الكُتُبِ العربيّةِ مِنْ هَذَا النُّوعِ، حَيْثُ مِنَ الواضِحِ أَنَّ هَذَا الأديبَ وَالكَاتبَ المُوسوعيَّ إنّما أرادَ أصلاً أن يوجَدَ للجزءِ الَّذِي كانَ يعيشُ فيه مِنَ الإمبراطوريّةِ العربيّةِ ما يُضاهي ذلكَ العَدَدَ الكَبيرَ مِنَ الكُتُبِ وَالْموسوعاتِ التي كانَ أهلُ المَشْرِقِ قد اشْتَهروا - في بَعْدادِ خاصّةً - بِإنتاجِها. بل إنّه، حتّى إذ حَاوَلَ مُضاهاةَ الكُتُبِ المَشْرِقيّةِ التي سَبَقَتْهُ، اعترفَ بأنّه عَرَفَ مِنْها، في نَسجِهِ على منوالِها، وَمِنْ أبرزِها كُتُبٌ لِلجَاحِظِ مِنْها «البُخلاءُ» وَ«البَيانُ وَالتَّبَيُّنُ»، وَ«الكاملُ» لِلْمَبْرَدِ، وَ«عَيونُ الأَخْبَارِ» لابنِ قُتَيْبَةَ. وَمِنْ ثَمَّ لئنَ تَفاخَرَ أدبَاءُ وَقُراءُ المَشْرِقِ بِمِثْلِ هَذِهِ الأَعْمالِ، وَكَذلكَ بِتِراجِ أَبِي حَيَّانِ التُّوجِيدِيِّ، كانَ في وَسعِ أبناءِ المَغْرِبِ وَلا سِياَ الأندلسِ أن يَجابِهُوهم بِ«العقدِ الفريدِ».



فُصُولٌ نَظَمَها ابنُ عَبدِ ربّه على أَسْماءِ الأَحْجارِ الكَرِيمَةِ

وقَدِ اعْتَمَدَ الكِتَابُ على مَجْمُوعَةٍ مِنَ المَصادِرِ الغَنِيَّةِ وَالْمُتنوعَةِ، وَهُوَ مِنْ أَهمِّ المَراجِعِ الحافِلَةِ بالنُّصوصِ الشعريّةِ والنثريّةِ، كما يُظهِرُ مَعْرِفَةً بِكثيرٍ مِنَ حَواثِرِ تاريخِ الأندلسِ وَأَخْبَارِ أَهلِها.

ويأتي الكِتَابُ في أُسْلُوبٍ سَهْلٍ خالٍ مِنَ التَّكَلُّفِ وَالزَّخْرَفَةِ، وَإِنْ كانَ شَدِيدَ الاِهْتِمامِ بِالاقتِباسِ وَالاستِشهادِ معَ الإكثارِ مِنْ مَأثورِ القَوْلِ، كما أَنَّ الأُسْلُوبَ بِشَكلِ عامٍّ، على خُلُوهِ مِنَ الصَّنَعَةِ، يَحْفَلُ بِقَدْرٍ مِنَ السَّجْعِ الَّذِي لا يُقلُّ مِنْ قِيمَةِ الكِتَابِ وَأَهْمِيَّتِهِ.